

الدرس السادس تاريخ التشريع الإسلامي

نعود إلى تفسير قول سيدنا عمر فيما يرويه مسلم كان الطلاق الثالث على رسول الله صلى الله عليه وسلم واحداً، يقول أبو جرير الطبري وأبو الوليد الباجي والإمام النووي في شرحه على صحيح مسلم كان العرب عندما يقولون طلقتك البتة معتادون على أنها طلقة واحدة كما حدث مع ذلك الصحابي حتى وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر وفهمه الناس.

وكان إذا أتى الرجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره أنه قصد طلقة واحدة صدقه حتى أتى عهد سيدنا عمر وشاع هذا الأمر أصبح لا يصدق هذا الأمر فألزمهم ما يقولون.

مثال آخر: عندما أرسل عمر جيشه بقيادة سعد بن أبي وقاص وفتحوا وغنموا وكان من الغنائم أموال منقولة وغير منقولة وهي سواد العراق ثم إن سيدنا عمر قسم الأموال المنقولة وترك غير المنقولة وكل الصحابة وافقوه على هذا، وإذا بالكتاب الجدد **يقولون** هذا عمر قد خرج عن النص لأجل المصلحة فقد قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن أربع الأخماس توزع كما فعل في خيبر **فلو اتبع** عمر لعقل هذا ولكنه بنظره الثاقب قال لو أنه وزع الأراضي على المسلحين لأتى الجيل الذي بعده وليس له شيء لذلك رأى أن تكون الأراضي لبيت مال المسلمين حتى يستفيد ويستغني بها المسلحون وقالوا هذه هي المصلحة التي تجاوز عمر النص لأجلها.

الجواب: عندما جمع سيدنا عمر الصحابة وقرر عدم توزيع السواد استشهد بالآية ﴿ وما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فالله ولرسول ولذوي القربى ...

كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ... والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان { .

يقول سيدنا عم الطريقة الوحيدة لتنفيذ ما أمر الله به **ألا نوزع الأربعة** لأن الله قصد بالفيء الأموال غير المنقولة وهذا اجتهاد منه ضمن الدائرة المسموح بها، إنه من الجريمة أن نقول أن عمر قد خرج عن النص.

بل إن الميزة الهامة لسيدنا عمر هي فهمه للنصوص ومعرفته لخلفية الأمور وبعد نظره وبعد تقديره للأمور وكله تحت سلطان النصوص والخضوع لأحكام القرآن والسنة.

إليك أمثلة عن هذه الصفات:

❖ مدينة الكوفة من هو المهندس الذي خطط لها وفتح الشوارع الرئيسية بعرض 30 ذراع والفرعية بـ 20 ذراع وسمح للمنازل المطلة على الشوارع الرئيسية أن تكون أعلى من التي بعدها إنه أمير المؤمنين عمر صاحب الفكر المصلحي السليم دون وجود نص يعارض هذا وهي من المصالح المرسلة.

❖ عندما جمع سيدنا عمر مجلس شوره وقال لهم وقد فتحت الشام والعراق إنني رأيت التجارة بيد الأقباط وإني أمركم أن تتاجروا فقال له بعض الحاضرين أمر كفيناه (اللهم جعلهم خدام لنا) قال عمر لأن قلت هذا والله ليكون رجالكم تبعاً لرجالهم ونساءكم تبعاً لنسائهم.

❖ إن هذا الفكر الثاقب العجيب شيء عظيم ولكن السؤال:

من أين لسيدنا عمر كل هذا؟

الجواب: لقد استحلب هذا من شدة تمسكه بالقرآن ومعقول النصوص وقواعد التفسير وأصول الفقه ومعرفة المعاني الخلفية للنصوص وهذا كله بما وهبه الله له فقمر كما وصفته امرأة.

(كنت رجل كان يقال له في الجاهلية عويمر ثم أكرمك الله بالإسلام والآن يقال لك أمير المؤمنين).

فإذا قلنا أن سيدنا عمر ذا فكر تقدمي اعتماداً على ما سبق فيا مرحباً لأن هذا يثبت أن الإسلام تقدمي وإلا فمن أين لعمر هذا التقدم.
لقد اكتسب عمر تقدم الإسلام ولم يكسب عمر الإسلام شيئاً من تقدمه.

الدور الثالث:

يبدأ في عام 41 هـ أي منذ تسلم معاوية الخلافة إلى أوائل القرن الثاني وأهم خصائصه:

❖ اتسع نطاق الخلاف قليلاً نتيجة نشوء نزعتين سياسيتين من جراء مسألة الخلافة بعد مقتل سيدنا عثمان، الخوارج، الشيعة، السواد الأعظم (أهل السنة والجماعة).

❖ بعد أن كان الصحابة محصورين بين مكة والمدينة لمنع عمر إياهم من الانتشار في أطراف العالم وذلك لظهور ما يقتضي أن يسمح لهم بالخروج فأمر سيدنا عثمان بذلك فانتشروا إلى الجهات التي وصل إليها الفتح الإسلامي، سيدنا معاذ بن جبل في البصرة وأبو موسى في الشام وعبد الله بن عباس في مكة وعمرو بن العاص في مصر وابن مسعود وتلاميذ سيدنا علي ما بين الكوفة والبصرة.

❖ كثرة الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ الناس حظوظهم في الرواية بعد أن كان الخليفة أبو بكر وعمر يقتنون من الرواية وذلك للضرورة التي نتجت عن توسع الفتوحات الإسلامية وظهور مشاكل جديدة.

❖ ظهور الوضاعين والكذابين على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديث إن بسبب ظهور الزنادقة الذين تظاهروا بالإسلام أو

لانتصار المغالين لمذاهبهم المتطرفة أو بسبب ضعف الدراية والجهل والعاطفة الإسلامية الفجة التي لا تضبطها ضوابط العلم (مثل الذين أرادوا أن يخوفوا الناس من الله أو الذين يريدون حض الناس على قراءة القرآن).

❖ ظهور منهجين في الفتوى:

1- مذهب في الحجاز أقطابه العلماء الذين بقوا فيها وهو منهج عدم الخروج على النص، فإذا وجد المفتي في المسألة المعروضة عليه نصاً أفتى وإلا قال لا أعلم عن هذا الأمر شيئاً.

2- مذهب في خارج الحجاز ممن اقتضت ظروفهم أن يتجرأوا فيفتوا في أمر اعتماداً على نص (قياس) وتتبع المصالح في دائرة النص وهي من أبرز خصائص هذا الدور.

شرح هذه الخواص:

❖ عندما توفي سيدنا عثمان لقتله آلت الخلافة إلى سيدنا علي ولكن قام في وجهه معاوية ظنناً منه أن الله عز وجل قد مكنه من الأمر وأنه هو الذي يستطيع أن يحاسب الذين أرادوا أن يشرخوا بنيان الدولة الإسلامية، أمثال قتلة سيدنا عثمان وغيرهم، وهذا اجتهاد لأن وقامت المعارك بين سيدنا علي ومعاوية ونعلم أن النصر كاد أن يكون لسيدنا علي لولا أن أنصار معاوية رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح ودعوا إلى التحكيم وهنا حصل خلاف في جيش سيدنا علي بين من قبل التحكيم ومن رفضه وقبل سيدنا علي التحكيم وهنا ثارت ثائرة فئة من أصحاب سيدنا علي ممن كانوا يقاتلون معه فحملوا حملة عشواء على سيدنا علي واتهموه لا بالخطأ فحسب بل بأكثر من ذلك هؤلاء هم الخوارج ولسنا ببيان غلوهم وإنحرافهم فهم من دون شك من أشنع الناس غلواً في التاريخ الإسلامي حتى إنهم يكفرون الناس لارتكاب كبيرة وبعضهم مثل الأزارقة

يكفرون المسلمون لارتكاب معصية، لذلك فقد كفروا سيدنا علي في مسألة التحكيم وبالتالي ظهرت هذه الفئة وأخذت تعتمد على فقهها وهي لا تعتمد إلا على تصوراتها وأخذت تلون فتاواها الفقهية بلونها السياسي، والفئة التي انتصرت لسيدنا علي ضد معاوية وكونت من هذا كتلة سميت شيعة سيدنا علي وآل بيت المصطفى صلى الله عليه وسلم واتجهت نحو غلو من نوع آخر فقد سارت في تفسير النصوص والاعتماد والاستنباط والفتوى بما يوافق منهجها وأفكارها وتصوراتها إلى جانب السواد الأعظم من المسلمين الذين قال قيههم رسول الله صلى الله عليه وسلم: [عليك بالسواد الأعظم]، [يد الله مع الجماعة]، [عليك بجماعة المسلمين]، إن ظهور هاتين الفئتين كان له أثر كبير في فتاوى العلماء فقد أصبح بعض الناس من هاتين الفئتين لا يقبلون الفتاوى إلا ما وافق مهجهم.